الحياة الإنسانية وفق نظريتي التطوّرية والوظيفية من منظور أنثروبولوجي

Human life according to evolutionism and functionalism theories from an anthropological vision

د. خواني خالد، khaledkhouani@gmail.com، جامعة تلمسان

ملخص:

اهتمت العلوم الاجتماعية منذ نشأتها بفهم وتفسير الحياة الإنسانية على مستوى الفرد والجماعة وبالتالي ظهر منظرون في كافة تخصصات العلوم الاجتماعية محاولين وصف وتحليل جوانب عدة للحياة الإنسانية إلى درجة التنبؤ بما ستؤول إليه في المستقبل وفق المتغيرات التي اعتمدوها ولاحظوها على الحياة الإنسانية منذ وجودها.

تهدف الدراسة إلى إبراز وفهم الحياة الإنسانية وفق طروحات وتفسيرات نظريتي التطوّرية والوظيفية في العلوم الاجتماعية، ركزنا على المنظور الأنثروبولوجي إلى جانب توضيح الانتقادات الموجهة لهما.

الكلمات المفتاحية: أنثروبولوجيا، تطوّرية، وظيفية، حياة إنسانية، بنيوية وظيفية.

Abstract :

Since their inception, the social sciences have been concerned with understanding and interpreting human life at the individual and collective level. Therefore, theorists have appeared in all disciplines of social sciences, trying to describe and analyze several aspects of human life to the point of predicting what it will lead to in the future according to the variables they have adopted. and observed on human life since its existence.

The study aims to understand human life according to the proposals and interpretations of the evolutionism and functionalism theories of the social sciences, emphasizing the anthropological perspective and the criticisms addressed to them.

Key words : Anthropology , Evolutionism , Functionalism, Human life, Structural functionalism .

مقدمة:

اهتم العديد من المفكرين في مجال العلوم الاجتماعية بفهم وتفسير الحياة الإنسانية على مستوى الفرد والجماعة، وبالتالي ظهر منظرون في كافة تخصصات العلوم الاجتماعية محاولين وصف وتحليل جوانب عدة للحياة الإنسانية إلى درجة التنبؤ بما ستؤول إليه في المستقبل وفق المتغيرات التي اعتمدوها ولاحظوها على الحياة الإنسانية منذ وجودها.

تتفرع العلوم الاجتماعية إلى عدة ميادين ومنها الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، والتي تعددت اتجاهاتها النظرية التي نظرت إلى مختلف جوانب الحياة الانسانية سواء كانت ثقافية، اجتماعية، سياسية، اقتصادية، فنية، دينية، ولكل منها رؤيتها وموقعها ومنهجها وتفسيراتها لهذه الجوانب.

تدل هذه النظريات على فاعلية وحيوية البحوث الأنثروبولوجية كما أنها متواصلة ومستمرة تتكيف مع المتغيرات التي تعيشها المجتمعات، ممّا ينتج عنها تنظيرات ومفاهيم متجدّدة، ونخص بالطرح نظريتي التطوّرية، والوظيفية المهمتين في العلوم الاجتماعية، حيث تطرق لهما العديد من الأنثروبولوجيين محللين ومفسرين الحياة الإنسانية في تطورها وأداء الوظائف وفق منظور معين تشترك فيه جميع المجتمعات.

I. الطرح التطوري للحياة الإنسانية:

1. تعريف النظرية التطوّرية: هي من أقدم وأول المدارس الأنثروبولوجية، وتعتبر هذه النظرية أن المجتمعات تنتقل عند تطورها من البسيطة البدائية إلى المعقدة المركبة كما تتطور الأجزاء العضوية في الكائن الحي عندما ينمو.

تقوم الفكرة الأساسية للمدرسة التطورية على أساس مفهوم التطور الثقافي حيث أن تاريخ البشر واحد على أساس وحدة الفكر الإنساني أما الفروقات الثقافية فهي وليدة ظروف تاريخية معينة، وعليه تكوّنت مجتمعات وقد وجدت وجودا متجانسا ومتواصلا مؤلفا من طبقات تطورية وأقساما متوازية يسير فيها التطور عبر خط مستقيم ومتصاعد تشكل كل مرحلة أساساً لما بعدها حسب نظام لا يزاغ عنه والذي يرتكز على ثلاثة قواعد أساسية وهي: حتمية التطور وتصاعدية المسار وتعاقب المراحل.

يتساءل التطوّريون متى وكيف كانت بداية تطوّر الجنس البشري؟ فيضعون إجابات يغلب عليها الطابع النظري.

2. **تاريخ نشأتها:** يرجع تاريخ نشأة الاتجاه التطوري إلى الفترة الممتدة ما بين 1859 و1900 (القرن 17 و18)، حيث اعتقد الفلاسفة أنداك أن البشرية تتطور باتجاه التقدم الدائم وأن المجتمعات تنحوا إلى الانتقال من حالة البساطة النسبية في تنظيمها إلى حالة أكثر تعقيدا وتمايزا، كما ارتبطت هذه النظرة بعلم البيولوجيا عند شارل داروين في كتابه أصل الأنواع بواسطة الاصطفاء الطبيعي" عام 1859 ولامارك الفرنسي في القرن 19. (Rivière & Boudon, 2013, p 29) والتي يمكن تلخيصها في العناصر الثلاثة التالية: (سعفان، 1973، ص 72)

- إن جميع أشكال الحياة تتغير وتنتج أشكالا جديدة باستمرار.
- بعض هذه الأشكال أكثر ملائمة مع الظروف البيئية من غيرها.
- إن الأشكال الأكثر ملائمة للبقاء والحياة تبقى وتستمر، أما الأخرى فيقضى عليها.

وقد تميّزت هذه المرحلة بظهور مدرستين متداخلتين، هما : النشوئية والتطوريّة. ويعود تداخلهما إلى أنّ العالِم الأنثروبولوجي، أو العالم الاجتماعي عندما يقوم بتفسير عمليّة التطوّر في أي نظام اجتماعي، من الماضي إلى الحاضر، لا بدّ أن يعمد إلى تحديد نشأة هذا النظام، وذلك بالعودة إلى المجتمعات البدائية لدراستها واستخلاص صفاتها وعلاقاتها، باعتبارها تمثّل التاريخ المبكر للجنس البشري، مثال ذلك : (نشأة الأسرة وتطورها) من حيث الإباحية الجنسية، وتعدّد الزوجات وصولاً إلى وحدانية الزوجة. وكذلك الانتساب إلى الأم ومن ثمّ إلى الأب. وهذه العودة إلى الشعوب البدائية، لا تقتصر على الأنثروبولوجيا فحسب، بل تشمل سائر فروع المعرفة الخاصة بالعلوم الإنسانية .

وقد تأثّر رواد هذه المدرسة، وفي مقدّمتهم "إدوارد تايلور" بنظرية "شارل داروين" في تطوّر الحياة الطبيعيّة للكائنات البشرية، وتستند هذه النظرية إلى أنّ العناصر المركبّة في الحضارة الإنسانية، تتطوّر باستمرار من الأشياء البسيطة إلى الأشياء المعقّدة، وهذا ما ينسحب على تطوّر النظم الاجتماعية.

ويرتبط اسم "داروين" على الأقلّ في أذهان عامة المثقفين في العالم، بأنّه الرجل الذي نادى بنظرية التطوّر متحدّيا فكرة الخلق، متأثرا بعالم الطبيعة "جون لمارك" الذي وصف

أشكال الحيوي–الفيزيولوجي وبيّن أن الوسط السائد يساهم في تغيّر الكائنات الحية وتحوّلها إذ تتبدل بنيتها الحيوانية عبر تكيفها مع الوسط المذكور.

وقد انتشرت هذه الأفكار قبل ظهور كتاب داروين عن " أصل الأنواع " بسبعين سنة على الأقلّ. وكان كلّ ما فعله "داروين"، هو أنّه قام بتجميع تلك الأفكار والآراء المبعثرة والمتناثرة، وتحليلها بطريقة منهجية، فيها قدر كبير من محاولة الفهم والتعمّق. ومن هنا ساعد كتاب " أصل الأنواع " في توطيد فكرة التطوّر وترسيخها. ولكنّ الأهمّ من ذلك، هو أنّ الكتاب يقدّم نظرية متماسكة عن الطريقة التي حدث فيها التطوّر، ووضع في ذلك مبدأه الشهير عن " الانتخاب الطبيعي " الذي فسّر به استمرار بعض الأنواع في الحياة ، واختفاء بعضها الآخر في معركتها الكبرى وصراعها من اجل الحياة.

وعلى الرغم من أنّه مبدأ بيولوجي في الأصل، إلاّ أنّه كان مفيداً للأنثروبولوجيين. وفي ذلك يقول الأستاذ "ألفريد كروبر" وهو من أكبر علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين : " إنّ هناك نوعاً من عدم التناسب بين الإسهام المحدود الذي أسهم به داروين في العلم، والذي ينحصر في وضع مبدأ الانتخاب الطبيعي وتجسيده، وبين كلّ ذلك التأثير الهائل الذي تركه تأسيس المبدأ البيولوجي على العلم الكلّي ". فقد دفع هذا المبدأ علماء القرن التاسع عشر، إلى البحث عن أصول الأشياء. وظهرت بذلك كتابات كثيرة تتناول أصل اللغة وأصل الحضارة، وأصل المجتمع والعائلة والدين، وما إلى ذلك بالطريقة نفسها التي تناول بها داروين مشكلة أصل الأنواع. (أبو زيد، 2001، ص 23–24.)

كان مضمون تحليل "داروين" يتمحور حول فكرة أن الخلائق بما فيها الإنسان تطورت من مستويات دنيا إلى مستويات عليا متخصصة. وينطبق ذلك تماماً على الحضارات الإنسانية فإنّها تطورت عبر مراحل عديدة حتى وصلت إلى مرحلتها الراهنة، وعلى ضوء ذلك فإنّ هناك حضارات دنيا أفرزتها المجتمعات البدائية وحضارات تمثل قمّة التقدم الحضاري والثقافي أفرزتها مجتمعات متطورة، ولعل الذي أبرز هذا التصور هو "أوغست كونت" في قانونه الاجتماعي (قانون الحالات الثلاث) الذي يرسم ثلاثة مراحل لتطور الحضارة هي المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية ومرحلة الوضعية (العلوم العقلية).

أثار "سبنسر" (المدرسة الانجليزية) فكرة توحيد الأفكار الخاصة بالتطور الاجتماعي مع نظرية التطور العضوي البايولوجية، مبيناً أنّ قوانين العلوم الطبيعية تنطبق على العلوم الاجتماعية في تقدم وتطور المجتمعات (المماثلة بين جسم الكائن والمجتمع من حيث التطور أي الانتقال من البسيط الى المعقد كذلك المجتمعات من البدائية إلى المعقدة).

خلال القرن 18 قام الفيلسوف الفرنسي "مونتسيكو" بأول دراسة أنثروبولوجية في مؤلفه "روح القوانين" واعتمد المقارنة بين الشعوب حسب موقعها الجغرافي والمناخي آخذا بالاعتبار العادات والتقاليد الموروثة في المجتمعات كونها تتجدد وتتطوّر وتحدّد القوانين التي تخضع لها كما طرح نظرية تطورية للمجتمعات تتكون من ثلاثة مراحل هي مرحلة الصيد أو الوحشية ومرحلة الرعي أو الهمجية ثمّ مرحلة الحضارة، ولاقت هذه النظرية رواجاً بالقرن التاسع عشر من قبل المفكرين الأنثروبولوجيين أمثال "مورغان" و"تايلر" للفترة بين عام (1861–1877) الذين استنتجوا من دراساتهم أنّ التقدم البشري يتبلور من خلال الانتقال من المرحلة الحيوانية إلى البدائية ثمّ إلى البربرية ثمّ إلى التمدن، وهذا كان أسلوب مورغان وأنجلز في دراساتهم لتطور العائلة ونظام الزواج وروابط القرابة ونسب الأبناء الأموي وأبوي وملكية القبيلة للأبناء وظهور العشيرة التي ارتبط بنظام الزواج وملكية الثروة في نهايات المرحلة البربرية من عصر المشاعية البدائية (السباعي، 1985، ص ص 65 ،67)، وكيف أنّ شخصية الفرد تتصهر في شخصية الجماعة التي تمثل كل شيء بالنسبة له وتتشابه الأدوار بالأسرة وتعتمد على الجنس (ذكر وأنثى) والعمر (أطفال، شباب، كهول، شيوخ) والمركز في النظام العائلي (أب، أم، عم، خال، ابن، بنت) وتقوم عمليات الضبط الاجتماعي على أسس معيارية متفق عليها وكان الأنثروبولوجيون يفترضون إنّ مراحل تطور المجتمعات الإنسانية واحدة وبالتالي في حالة تعذر دراسة الأصول التاريخية لمجتمع ما فإنّه ممكن دراسة مجتمعات أخرى في مرحلة تطور أدنى وصولاً إلى جذور المجتمعات المعاصرة, لكن هذا الافتراض النظري ثبت عدم دقته مؤخراً لظهور دراسات أثبتت أنّ انساق تطور المجتمعات لا يتم بشكل واحد..

3. مواضيعها: ركّز العلماء التطوّريون، على موضوعات معيّنة : كأصل المجتمعات، الدين، العائلة والنسب، ، اللغة والحضارات، واعتبروا أنّ الحضارات البدائية

المعاصرة، تمثّل شواهد دالّة على مراحل التطوّر الاجتماعي التي مرّت بها الحضارة الحالية المتقدّمة .

ولكن ثمّة صعوبات قابلتهم، في دراسة التطوّر في العصور القديمة جدّاً، ولا سيّما عصور ما قبل التاريخ، فعمدوا إلى دراسة علم الآثار أو التخمين والافتراض من أجل إثبات نظريتهم. (Nicholson, 1968, p 7)

4. أهم رواد التطورية:

نعرض باختصار أهم العلماء سواء كانوا فلاسفة أو علماء اجتماع أو الطبيعة الذين فصّلوا في الطرح التطوري حسب آراء كل واحد منهم، وهم كالآتي:

- "**باتيست لمارك**" أول واضع للتطورية كنظرية معتبرا أن التطور ميكانيكي أو الصفات تُكتسب من خلال التفاعل مع البيئة الجديدة وعملية التكيف معها، تأثر بأفكاره "**شارل داروين**" في كتابه "في أصل الأنواع" وفق القانون الطبيعي (الاصطفاء الطبيعي).
- **كولين فوستيل** الفرنسي بكتابه "المدينة القديمة" الصادر سنة 1864.
- **فريديريك انجلز وكارل ماركس** في ألمانيا بكتابهما "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة" الصادر سنة 1884.
- "**جيمس فريزر**" بانجلترا بكتابه "الغصن الذهبي" الصادر سنة 1890، تناول فيه المعتقدات الدينية والسحر في المجتمعات القديمة.
- "**هاربرت سبنسر**" (1820–1903) الذي طرح فكرة تطور المادة عبر انتقالها من مرحلة متجانسة إلى مرحلة غير متجانسة، وبالتالي يتضح التطوّر عنده قائما على التمايز والتفاضل عند الكائنات الحية، كما يصح تطبيق هذا القانون على المجتمعات البشرية (قانون المماثلة بين الكاننات العضوية والمجتمعات البشرية في عملية التطور).

ينظر "سبنسر" إلى المجتمع بوصفه جهازا عضويا لثلاث أسباب:

- نموه المتواصل مثل ما ينمو جسم الإنسان,
- تقسيم العمل في المجتمع يشبه عمل الأعضاء داخل الجسم فكل عضو يؤدي وظيفة معينة.

- تكوين الجسم والمجتمع في البداية يكون بسيطا ثم يأخذ في التعقيد نتيجة تمايز الأجزاء وتكاملها.

ولكن أشهر الباحثين المتخصصين في الأنثروبولوجيا نذكر:

أ- **لويس هنري مورغان:** (الأمريكي 1818-1881) له كتاب "المجتمع القديم 1877" تمحورت أبحاثه حول المجتمعات القديمة وتطور نظام القرابة أو العائلة. افترض مورغان عددا من المراحل التطورية الاجتماعية، وربط كل مرحلة من تلك المراحل بنمط معين طبقا لمراحل التطور الثقافي، كما افترض أن جميع المجتمعات تخضع في تطورها لقانون الحاجات الإنسانية على الدرجة نفسها من التطور وذلك حين تكون العلاقات الاجتماعية على الدرجة نفسها من المساواة.

يرى مورغان أن الثقافة الإنسانية انتهجت في تطورها مسارا أحاديا أي وفق سلسلة متتابعة الحلقات (الدراسات التتبعية التي تتناول الظاهرة من أصلها وتقوم برصد تطورها عبر مراحل نموها) أي لابد لكل ثقافة من أن تمر عبر مراحل محددة من الحالات الدنيا إلى الحالات الراقية فالأكثر رقيا. وقسمها إلى ثلاث مراحل (التوحش – دنيا-وسطى-عليا، البربرية، التمدن). **فالمرحلة الوحشية** في نظر "مورغان" كان الإنسان خلالها يمتلك ما هو جاهز في الطبيعة، والتي قسمها إلى ثلاث مراحل وهي:

- **الوحشية الدنيا:** يرى فيها "مورغان" طفولة البشرية حيث عاش الإنسان في مرحلة أشبه بالحيوان هائما على وجهه ملتقطا وجامعا للثمار البرية وجذور النباتات متغذيا عليها.
- الوحشية الوسطى: ما يميّز هذه المرحلة اكتشاف النار واستخدامها في طهو الطعام وإنارة الكهوف والتدفئة، نتج عن ذلك تغيّر النمط الغذائي للإنسان بتعرفه على أنواع جديدة من الأطعمة وخاصة اللحوم والأسماك.
- الوحشية العليا: صنع الإنسان أدوات الصيد كالقوس والسهم، وصار صائدا للحيوانات متغذيا على لحومها فبالتالي صار الإنسان منتجا لغذائه فتغير نمطه الاقتصادي (التحوّل من ملتقط للغذاء إلى منتج له).

ثم **المرحلة البربرية** (تربية المواشي، الزراعة) بمميزاتها التالية:

- البربرية الدنيا: بدأ الإنسان يبدع فصنع الفخار انتشاره في المساحات الواسعة وخروجه من عزلته الضيقة، كما بدأ في تكوين الجماعات الاجتماعية.
- البربرية الوسطى: تمكن الإنسان من صهر المعادن وصناعة الأدوات والآلات المعدنية، وكانت بداية الكتابة الصورية.

وبعد اجتياز هذه المراحل انتقل الإنسان إلى **مرحلة التمدن** (التحضر وتحويل المنتجات)، والتي تتميز باختراع الحروف الهجائية والكتابة ...

أ- **ادوارد برنت تايلور**: (البريطاني 1832-1917) يرجع الفضل إلى تايلور في ابتكار مصطلح الثقافة في كتابه "الثقافة البدائية" سنة 1871 مفهوما أنثروبولوجيا بحسبانه "كل ما يفهم من العلم والعقيدة والعادات ...). عدّ تايلور الثقافة عنصرا مساعدا لفهم تاريخ بني البشر طالما أن الثقافة ظاهرة تميز الإنسان عن سائر الكائنات يكتسبها الفرد بالتعلم من مجتمعه الذي يعيش فيه.

لا يصر تايلور خلافا لمورغان على عد مراحل تطور الثقافة من الوحشية إلى البربرية فالمدنية حتمية ملزمة محتفظا بمبدأ التطور من الأدنى إلى الأعلى. لتايلور دراسات في الأنثروبولوجيا الدينية ودرس مراحل تطور الدين المسيحي وقد قدم تعريفا بسيطا عن الديانة وهو الايمان بكائنات روحانية. حيث أورد تايلور كلمة animisme (الأرواحية) لكي تغطي كل أشكال الاعتقاد في الكائنات الروحية (تتصور عالم الأشياء أو الطبيعة تسكنها أرواح).

5. منهجية البحث والانتقادات الموجّهة للتطوّريين:

تعتمد النظرية التطورية على المنهج التاريخي بطريقة تخمينية أي افتراضية بدون الاعتماد على وثائق مكتوبة، فنجد الأنثروبولوجي التطوري يفترض ويتخيّل أنماطا من التغيّرات والسلوكيات (الثقافية والاجتماعية) إنطلاقا من مؤثرات واهية إذ في الغالب ما تكون عبارة عن رواسب لبعض العادات والأعراف المعتبرة بمثابة الذخائر المتبقية من مرحلة سابقة، وهذا أساسا ما يعاب على التطوريين، أي عدم وجود دلائل مادية لطروحاتهم، لذلك اتجه التطوّريون إلى توظيف اكتشافات علماء الأثار في المجال البيولوجي (الحفريات العظمية) والثقافي (الأدوات التى استخدمها الإنسان) لتصحيح أو تأكيد نظرياتهم. نلخص أهم الانتقادات في النقاط التالية:

- يقول أوجيه: "أصبح كل من مورغان وتيلور مؤرخين للحضارات فهما يريان في المجتمعات الإنسانية مراحل على طريق تطور أحادي الخط، كما لو أن الإنسانية قد توافقت على غاية واحدة هي خلق المجتمع الغربي".
- خطأ تفسير ما هو مختلف انطلاقا من تجربة تاريخية خاصة وتقييم الآخرين بمقياس خاص وهذا ما أنتج ثنائية المجتمع: البسيط والبدائي من جهة، والمعقد والمتطور من جهة أخرى.
- الاعتماد على مصادر غير دقيقة وغياب الدراسات الميدانية.
- التركيز على مفهوم المركزية الإثنية الذي يقول بأفضلية المجتمع الغربي خاصة المجتمعين البريطاني والأمريكي.
- يرى مالينوفسكي أن التطوريين اختاروا بعض السمات الثقافية وانتزعوها من سياقها الاجتماعي الكلي وقاموا بالمقارنة بينها بشكل غير علمي لإثبات فروق مسبقة تتعلق بالتطور الاجتماعي.

II. الطرح الوظيفي للحياة الإنسانية:

1. تعريف الوظيفية: اقترنت الوظيفية بالاتجاه العضوي في العلوم الطبيعية وقد اقترنت بالمماثلة العضوية والذي يرى اصحابها من بينهم "أدم سميث" أن المجتمع نسق طبيعي ينشأ من الطبيعة البشرية لا من العقد الاجتماعي. عرف عن الاتجاه الوظيفي بتركيزه على دراسة الثقافات الانسانية كل على حدة وفق واقعها المكاني والزماني بمعنى ليست دراسة متزامنة بقدر ما هي آنية. يرتبط مفهوم الوظيفية بالغائية التي ترى أنّ ظواهر الحياة بأجمعها تسير إلى غاية موجهة وفقاً لنظام ثابت ومحدد يؤثر فيه كل عضو بالأعضاء الآخرين وبنفس الوقت يستجيب لتأثيرات من أولئك الأعضاء ويكون هدف العلاقات الوظيفية متمثل باستمرار الحياة, فالغائية من هذا المنظور تتمثل في وحدة وظيفية ضمن منظومة تنتظم فيها ظواهر ووظائف وفق نظام ثابت تتكيف متغيراتها الوظيفية تبعاً للشروط الأساسية التي تستوجب لقاء الكائن الحي في بيئته. (الأخرس، 1981، ص 61)

يستخدم علماء الاجتماع تعبير الوظيفية للدلالة على ترابط الظواهر الاجتماعية بعضها مع البعض الآخر في نسق وظيفي يوضح وظائف الأجهزة الاجتماعية التي تقوم بها في سبيل استمرار حياة المجتمع الإنساني والتفاعلات التي تتم فيه ضمن البناء الاجتماعي الواحد.

إنّ المقصود بالبناء الاجتماعي هو النظم الاجتماعية أو الجماعات الاجتماعية المستمرة في الوجود بحيث تستطيع الاحتفاظ بكياناتها كجماعات رغم التغيرات التي تحدث للأفراد الذين يكونون تلك الجماعات فلكل مجتمع صورة أو نمط معين نصفه أنّه نسق أو بناء يعيش فيه أفراده وينزلون على مستلزماته, وكلمة بناء هنا تعني التماسك والتوافق بين أجزاءه إلى الحدّ الذي يمكن تجنب التناقض الصارخ أو الصراع المكشوف وإنّ البناء يتمتع بدرجة من الديمومة أكثر مما تحظى به معظم الأشياء العابرة السريعة في الحياة الإنسانية إلى الحدّ الذي قد لا يفطن أفراد المجتمع نفسه أنّ لمجتمعهم بناءً مميزاً. (الخطيب، 2008، ص 52)

يمكن تشبيه البناء الاجتماعي مثل المادة الإسمنتية التي توضع بين الحجارة لبناء الجدار والتي تعمل على تماسك هذه الحجارة ليكوّن الجدار . فالعالم الأنثروبولوجي مهمته الكشف عن هذا البناء ما هي مكوناته وكيف امتزجت وما هي صفات كل منها على انفراد وكيف توالفت صفات الجزء مع صفات الجزء الآخر لتشكل مكوّن جديد بشد أجزاء البناء لبعضها، فمكونات البناء هي النسق القرابي والنسق الاقتصادي والنسق السياسي وفي كل نسق بالبناء تأخذ ظواهر السلوك والتصرف الاجتماعي شكل النظم الاجتماعية كنظم الزواج والعائلة والأسواق وأدوات السلطة السياسية وغير ذلك، وعلى هذا الأساس ركز الوظيفيون على (البناء) و(الوظيفة) أي بناء النظم والطريقة التي تعمل فيها هذه النظم كأجزاء في النسق لتؤمن احتياجات المجتمع لتحقيق التوازن الاجتماعي, وإنّ فكرة التكامل الوظيفي تعني أنّ أي جزء في أي نظام لا يمكن فهمه إلا من خلال علاقته الوظيفية ببقية مكونات النظام في المجتمع,.

وهذا يعني أنّ أنماط السلوك الإنساني تستهدف إشباع حاجات لا يدرك معناها إلا في ارتباطها بالأنماط الوظيفية الأخرى ضمن نفس البناء. (الخطيب، 2008، ص 52)

فالوظيفية كمنهج تبحث عن الارتباط المتداخل بين الظواهر الثقافية يهدف الكشف عن كيف يعمل المجتمع فهي تنبش في عُقد كيفية ترابط وتفاعل عناصر النسق وتتسائل لماذا وجدت واستمرت أنماط ثقافية دون أخرى وفي مجتمع دون غيره، مثال: لماذا وجدت واستمرت ثقافة (السحر) في مجتمع (جزر التروبرياند) فلاحظوا أنّها وجدت واستمرت لتخفيض القلق وتبديد الخوف من العالم المجهول حولهم، ومثال آخر أوضحه "رادكليف براون" لماذا وجدت واستمرت الشعائر الدينية في (جزر الأندمان) في استراليا فوجدوا أنّها لتحقيق التماسك الاجتماعي.

خلاصة القول أنّ رؤية الوظيفيين للثقافة أنّها أكبر من مجرد الأجزاء المكونة لها وإنما هي تكوين بنائي وظيفي تربطه علاقات متبادلة ومتشابكة بين المكونات وأنّ أي تغير بهذه المكونات يترتب عليه رد فعل بالمكونات الأخرى، مدركين أنّ السمات الثقافية (مكونات الثقافة) تؤدي أغراضاً وتحقق وظائف وهناك ترابط بين السمات والوظائف والحاجات التي تشبعها . (الخشالي، 2010، ص 23)

2. روادها: اقترن الاتجاه الوظيفي بالأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا بأسماء "مالينوفسكي وراد كليف براون"

أ- **برونيسلاو مالينوفسكي (1884-1942):** بولندي الأصل حصل على الدكتوراه في الفلسفة ثم قرر أن يتخصص في الأنثروبولوجيا بعد قراءته لكتاب الغصن الذهبي لجيمس فريزر. يرى مالينوفسكي أن ثقافة أي مجتمع تنشأ وتتطور في ايطار اشباع الاحتياجات البيولوجية للأفراد وحصرها في التغذية والانجاب والأمان والحركة والنمو. ويرى الثقافة بانها "ذلك الكل من الأدوات والعقائد والعادات التي تؤلف في مجموعها الجهاز الذي يكون فيه الانسان في وضع يفرض عليه أن يكيّف نفسه مع هذا الجهاز الكلي لكي يحقق حاجاته الضرورية". ويؤكد مالينوفسكي أن الثقافة هي كلي وظيفي متكامل ويشبهها بالكائن الحي بحيث لا نستطيع فهم أي جزء من الثقافة إلا في ضوء علاقته بالكل، وان الوظيفة التي يؤديها بعناصر الثقافة الأخرى، أي أن الثقافة تدرس كما هي موجودة بالفعل وليس من الضروري أن نبحث في تاريخ نشأتها وتطورها.

وقد أدت دراسات مالينوفسكي وأبحاثه إلى بناء ثلاث مسلمات أساسية:

- الوحدة الوظيفية: كل عنصر من المجتمع يؤدي حتما وظيفة إيجابية للنظام الاجتماعي بمجمله.
- الوظيفة الكلية: كل عنصر له وظيفة داخل المجتمع.
- الوظيفة الضرورية: كل عنصر من المجتمع هو جزء أساسي منه ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنه أو عن وظيفته.

ب- راد كليف براون (1881-1955): بريطاني حاول أن يطور الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى علم طبيعي يقوم على الدراسة العلمية المقارنة للأنساق الاجتماعية عند الشعوب البدائية. درس البناء الاجتماعي وأنساق القرابة ومن أهم الاتجاهات التي تأثر بها وهيمنت على أفكاره مسألة المماثلة بين الكائنات الحية والحياة الاجتماعية. يعرف "براون الوظيفة بأنها الدور الذي يؤديه أي نشاط جزئي في النشاط الكلي وهكذا تكون وظيفة أي نظام اجتماعي كامنة في الدور الذي يؤديه في البنية الاجتماعية المكونة من أفراد مرتبطين ببعضهم البعض (التماسك في العلاقات الاجتماعية). اهتم مالينوفسكي بمفهوم الثقافة وجعلها محورا لتحليلاته الوظيفية بينما براون اهتم بالمجتمع معتبرا اياه نسقا طبيعيا.

حسب "براون" فإن دراسة الأشخاص تقع في نطاق البنية الاجتماعية ولا يمكن دراسة أي بنية اجتماعية ودونهم بحسبانهم وحدات البنية الرئيسية. إن دراسة المجتمع عند "براون بمعناها البنيوي تشير إلى الترابط الداخلي بين البنية الاجتماعية وبين صيرورة الحياة الاجتماعية وعليه استخدم مفاهيم مثل **صيرورة process وبنية structure ووظيفة function** بنى من خلالها نظريته في تفسير الأنساق الاجتماعية. تقوم فكرة الوظيفة بمعناها البنيوي عند "براون" على أساس أن البنية تؤلف مجموعة من العلاقات المترابطة بين الوحدات البنيوية (الأسرة وحدة بنيوية والعلاقات الأسرية القائمة بين أفرادها هي علاقات بنيوية يستحيل رؤيتها في عموميتها في أية لحظة لكننا نستطيع ملاحظتها. وبالتالي أهم ما يميّز تفسيرات "براون" وتحليلاته الوظيفية هو تركيزه على البنية الاجتماعية ووظيفتها وهو ما أدى إلى ظهور اتجاه جديد في الأنثروبولوجيا معروف بالاتجاه البنيوي الوظيفي Structuro-fonctionnalisme.

3. نقد النظرية الوظيفية:

تعرضت النظرية الوظيفية لكثير من الانتقادات من طرف المعارضين والأتباع وهذه أهم الانتقادات:

أ. **المماثلة:** يرى إيفانز بريتشارد أن المجتمعات هي أنظمة معنوية وليست طبيعية ودراستها تنتمي إلى النوع التأويلي أكثر من التفسيري، وهذا ما أكده ساهلينز أنها البعد والرمزي في المجتمع مكتفية بوصف خصائص التنظيم الاجتماعي.

ب. **الحتمية الوظيفية:** يقول ليفي ستروس «إن القول بأن المجتمع يعمل هو أمر بديهي ولكن القول بأن كل شيء في المجتمع يعمل هذا أمر عبثي». كما أكد ليش على«أن الاستخدام الوظيفي للوظيفية يقوم على التباس منطقي يغطي فئتين مختلفتين وقائع مرئية وغايات محتملة». وبين لويس مير أيضا أن «مفهوم الوظيفة اتخذ دلالات شديدة الاختلافات حالت دون تمتعه بفعالية إجرائية كافية».

ج. **التوازن:** هناك نظرة تفاؤلية مفرطة فيما يخص التأكيد على التوازن ونكران الخلافات والتوترات، لذا ركز الماركسيون في انتقاداتهم على عجز الوظيفية في تفسير وتبيان التوترات والتناقضات والتغير الاجتماعي كما أكد على ذلك الوظيفيون الجدد من أمثال غلوكمان لذي أكد على أهمية الخلافات والتناقضات من خلال وجود دينامية داخلية وهذا ما ذهب إليه سبرتشا من خلال وجود التضاد والتكامل في مجتمع "النوير بالسودان".

د. **اللاتاريخانية:** أكد باحثون ماركسيون ووظيفيون من أمثال "غلوكمان" على أهمية التاريخ في دراسة المجتمعات الإنسانية وأدانوا الخيار الوظيفي المناهض للتاريخ.

هـ. نقد المسلمات الوظيفية حسب" روبرت ميرتون:"

- هناك عناصر يمكن أن تكون وظيفية بالنسبة لجماعات وغير وظيفية بالنسبة لجماعات أخرى كالدين الذي يؤدي وظيفة اندماج اجتماعي كما يمكن أيضا أن يكون مصدرا للصراع.
- يمكن أن يكون هناك عنصر لا وظيفي.

هناك بدائل وظيفية تسمح بتوقع تحولات في الوضعيات الاجتماعية (مثل تربية الأبناء، دور الحضانة، المربيات).

خاتمة:

ينظر للنظرية التطوّرية والوظيفية على أنهما من النظريات الكلاسيكية بحكم ظهورهما زمنيا الأقدم من النظريات المعاصرة، وأن منظريها من أوائل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا كما فسرتا الحياة الإنسانية لمجتمعات خلال حقب تاريخية قديمة وحديثة بسيطة ومعقدة، والتي تختلف عن المجتمعات المعاصرة التي تعيش عصر العولمة، إلا أن الحياة الإنسانية تحمل قواسم مشتركة عبر الحقب التاريخية لها، وهذا ما جعلنا نجزم أن نظريتي التطورية والوظيفية في تفسيراتهما المتفق عليهما لدى أغلبية علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ما زالت قائمة ومعمول بها رغم الانتقادات الموجهة لهما، والتغيرات التي تعيشها المجتمعات.

الإحالات والمراجع:

1. أبو زيد أحمد، الطريق إلى المعرفة، الكتاب العربي 46، منشورات مجلة العربي، الكويت، 2001.
2. الأخرس محمد صفوح، علم الاجتماع العام أسسه، ميادينه، وموضوعاته، مطابع مؤسسة الوحدة، دمشق، سوريا1981 .
3. السباعي بدر الدين، مشكلة المرأة – الحل التاريخي، دار الجماهير، دمشق، 1985.
4. سعفان حسن شحاتة، دراسات في علم الإنسان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1973.
5. الخطيب محمد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار علاء الدين للنشر، سورية، 2008.
6. الخشالي شاكر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، الموقع الإلكتروني للأكاديمية العربية المفتوحة بالدنمارك، 2010.
7. Nicholson , C Anthropology Development and Personality , 2 nd Ed , New York, Harper .1968.
8. Rivière Claude, Raymond Boudon , introduction à l'anthropologie, Ed hachette, 2013.